

الفصل السابع
تألق المدرسة التاريخة المصرية
وأشهر
مؤرخى القرن التاسع الهجرى

القلقشندى .

القرىزى .

السخاوى .

السيوطى .

obeikandi.com

الفصل السابع

تألق المدرسة المصرية وأشهر مؤرخي القرن التاسع الهجري

يوالى المؤرخون المصريون كتاباتهم التاريخية علي النحو الموسوعي، فظهر عدد كبير من رجالانها وعلي رأسهم القلقشندي والسخاوي والسيوطي وغيرهم ومن أضافوا بحق من التأريخ أبعاد جديدة، وافتادوا المدرسة التاريخية الاسامية صيغة عامة والمدرسة التاريخية المصرية بصفة خاصة، وامتدوها بروافد جديدة في صناعة علم التاريخ ومن الكتابة والتأليف فيه

القلقشندي: القاضي أبو العباس أحمد: ولد عام ست وخمسين وسبعمائة، وسمع علي عدد من شيوخ مصر من بينهم ابن الشيخة. ترجم له السخاوي في الضوء اللامع، والعماد الحنبلي في شذرات الذهب وذكره المقرئزي وابن تغري بردي والعيني وغيرهم.

والقلقشندي من أبناء مصر، ولد بقرية قلقشندة إحدى قرى محافظة القليوبية وهو أحد القضاة الشافعية درس الفقه واللغة والأدب، وأجازته الشيخ الإمام الشافعي وهو في الحادية والعشرين من العمر، ويصفه أبو المحاسن فيقول: كان إماماً فقيهاً بارعاً في العربية، مشاركاً في الفقه والفرائض

وارتفعت مكانته الأدبية فجلس للإفتاء وعرض عليه كثيرون من تلامذته ما حفظوه في الفقه والأصول وعلوم العربية فأجازهم. وهو بهذا قد بلغ مكانة رفيعة في الحياة الثقافية والفكرية في مصر، وقد أهلت هذه المكانة بالإضافة إلي براعته في التأليف والكتابة لتولي بعض المناصب الإدارية الهامة في بلاط السلطان المملوكي الظاهر برفوق فالتحق بديوان الإنشاء عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م وكان أحد موقعي الدست ونواب الحكم.

وقد ترك لنا القلقشندي عدداً من الأعمال الأدبية والتاريخية كان أهمها

وأشهرها صبح الأعشي في صناعة الأنشاء، وكتاب نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب في الأنساب وكتاب قلاند الجمان في قبائل العربان وكتاب الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات. ومختصرات الجوامع.

وقد سار القلقشندي في مؤلفاته علي نهج القاضي الفاضل وابن نباته وفضل الله العمري عن سبقوه من أعلام الكتابة والانشاء. ويوضح لنا القلقشندي في مقدمه كتابه صبح الأعشي السبب الذي من أجله وضع هذا الكتاب فيقول: والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التأليف وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف، ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها، وأخرى جنحت إلي ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها، وطائفة لمن بعدهم يسلك سبيلها من أراد أن ينسج علي منوالها، ولم يكن فيها تأليف جامع لمقاصدها ولا تأليف كافل بمصادر الجليلة ومواردها. (١)

والقلقشندي هنا يتتقد طريقة الكتابة التي سبقت تأليفه الكتاب، ويضع لنفسه نهجاً أراد به أن يطور الكتابة الأدبية والتاريخية معاً ويستدرك علي من سبقه ما فات عليهم ويضيف تجربته العلمية التي اكتسبها خلال دراساته المتنوعة وخلال عمله في ديوان الأنشاء.

ويري القلقشندي أن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطلب العلم من المكاسب سواها، ولا يجوز العدول عنها إلي ما سواها ولذلك ضمن كتابه صبح الأعشي الأصول والقواعد والأسس التي رآها أساسية لهذا الفن كما بين القوانين التي تحكمها وتحكم القائمين عليها.

ويلتمس القلقشندي العذر من قرائه وتلاميذه فيقول: وليعذر الواقف عليه فتايج الأفكار علي اختلاف القرائح لا تنهاهي وإنما ينفق كل أحد علي قدر سمته ولا يكلف الله نفساً الا ما آتاهما ورحم الله من وقف علي خطأ فأصلحه عاذراً لا عاذلاً ومنيلاً لا نائلاً فليس المبرأ من الحظّل إلا من وقى الله وعصم وقد

(١) القلقشندي - صبح الأعشي في صناعة الأنشاء، ج ١، ص ٧٧.

(٢) القلقشندي - صبح الأعشي، ج ١، ص ١.

قيل: الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم. (٢)
وقد قسم القلقشندي كتابه صبح الأعشى كما يذكر في مقدمته إلى مقدمة
وعشر مقالات وخاتمة.

أما المقدمة ففي مباد يجب تقديمها قبل الخوض في كتابه الإنشاء وفيها خمسة
أبواب:

تحدث في الباب الأول عن فضل الكتابة والكتاب ومدح فضلانها وذم حماهم.
والباب الثاني في مدلول الكتابة لغة واصلاحاً، وبيان معني الإنشاء وتفصيل كتابة
الإنشاء علي سائر أنواع الكتابة.

وجاء الباب الثالث في صفات الكتاب وآدابهم، وخصص الباب الرابع في
التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام وتفريقه في الممالك.
واهتم القلقشندي في الباب الخامس بقوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله
وآداب أهله وذكر وظائف وسلطات متوليه وخصص الباب الخامس فيما يحتاج إليه
الكتاب.

ثم يناقش القلقشندي بعد ذلك في مقالاته المتخصصة أحوال المسالك
والممالك، والخلافة، ونظم الإدارة في مصر والبلاد الإسلامية، والرسائل الواردة إلى
الديوان والصادرة عنه والأصول المرعية في تدوين تلك الرسائل والمعهود والمواثيق
والمعاهدات والبريد وغير ذلك من الأمور التي وجدها متعلقة بموضوع الكتاب.

وما يهمنا في مؤلفات القلقشندي هي كتاباته التاريخية التي شملت التاريخ
الإداري لمصر حيث بين في كتابه صبح الأعشى الأصول التي سارت عليها نظم
الدواوين كما وضع لنا أسس العلاقات بين حكام المسلمين وجيرانهم من ملوك
وأسماء وأباطرة العالم آنذاك وهو بهذا يكون قد سبق عصره بأن وضع أسس
المراسلات الدولية وأساليب البروتوكول التي يجب أن تراعى في هذا المجال.

وقد أكد القلقشندي علي أهمية التاريخ للكاتب فقال: أعلم أن الكاتب
يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ وتفصيلها ولا يكاد يستغني عن العلم بشيء منها

لامورمنها: العلم بأزمته الوقائع والماجريات، وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والماجريات الحاصلة بينهم، فيجئ بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك، فإنه متى أحل بمعرفة ذلك احتج بالقصة في غير موضعها، أو نسبها إلي غير من هي له، أو لبس عليهم خصم في الاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها، أو نسبها إلي غير من هي له ليظهر حجته عليه. (١)

وقال أيضا أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف علي اختلاف فنونه، ما بين مختصر ومبسط، من مقتصر علي فن ومستوعب لفنون، وفي تلك المصنفات نوادر غريبة ولطائف عجيبة لا يحصل بعد استماعها بالمطالعة كما لا يقع الظفر بالجواهر في المعدن الا بعد عمل كثير يحصل من خلالها علي بغيته فإذا التقطت الجواهر من المعدن سهل تناولها لمربدها (٢)

إن القلقشندي قد قعد للكتابة الديوانية بعد دراسة تاريخية رمنية لنشأتها وتطورها، ثم حدد أصولها قوانينها ثم قدم بعد ذلك دراسة فريدة متميزة شملت التاريخ العام والتاريخ المحلي، والنظم الإدارية، والعلاقات الدولية الإسلامية، والسياسية الخارجية لمصر باعتباره قد شغل وظيفة إدارية هامة في ديوان الانشاء يوازي ديوان وزارة الخارجية في النظم السياسية الحديث.

ولعنا لا نستطيع أن نغفل الحديث عن دور فضل الله العمري في هذا المجال في كتابه المصطلح الشريف إلا أن القلقشندي قد تفوق وتميز علي سابقيه بحيث جعل للكتابة سمًا خاصًا وأسلوبًا متفردًا ومجالًا شاملاً برع فيه مؤرخًا سياسيًا وإداريًا يوضح لنا مدى ما وصلت إليه المدرسة التاريخية المصرية من مكانه في تلك المرحلة. (٣)

وامتدت عناية المؤرخين المصريين إلي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي فكان

(١) القلقشندي: صبح الأمتي: ج ١، ص ١١٢.

(٢) انظر محمد عبد الله عازن- مؤرخو مصر الإسلامية ص ٧٦: ٨٤.

(1) Cibb. The Islamic Background Of Ibn Khaldun. s Political Theory. Studies On Islamic civilization PP 166- 165 london

المقريزي رائداً من رواد هذا المجال الذي يركز عليه المؤرخون للحدثون باعتباره مجالاً جديداً من التأليف التاريخي الذي نتج عن ادراك لحركة المجتمع أسهمت في تغيرة ونظوره، مما ظهر واضحاً في اهتمامات المؤرخين المصريين من رجال القرن التاسع الهجري حيث اتجهوا إلى العناية بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

لكننا نستطيع أن نقرر ونحن مطمئنين إلى أن مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي قد عرفته وأصلته المدارس التاريخية الإسلامية، وبصفة خاصة المدرسة المصرية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين هذا التفاعل بوضوح عند ابن خلدون الذي استطاع أن يصل بحسه التاريخي ونظريته المحللة المدققة إلى قمة ميزته في العالمين الشرقي والغربي وجعلته مؤسساً لنظرية جديدة وعلم جديد.

لقد بهر ابن خلدون المفكرين في الشرق والغرب علي السواء، مما جعل المفكرين الغربيين يقفون كثيراً عند أعماله، ويحللون أفكاره ونظرياته، فهذا جب يقول إن ابن خلدون هو المؤسس لعلم جديد هو علم الاجتماع أو بعبارة أخرى هو المؤسس لعلم التاريخ وفلسفته، إنه يحلل العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها المحفزة لقيام الوحدات السياسية وصولاً إلى نشأة الدولة (١) ومن ناحية أخرى فإن المنهج الذي اتبعه ابن خلدون في مقدمته يجعله مؤسساً لعلم جديد اعتمد بالدرجة الأولى علي طريقة علمية في البحث

Scientific Method Of Inquiry

إنه عندما يتحدث عن الحضارة الإنسانية، وعن الدولة، وعن المواطنين في الدولة، أدخل مفاهيم جديدة إلى العقلية الوسيطة عموماً وعقلية أوربا في العصور الوسطى بصفة خاصة مما مهد دون شك إلى قيام النهضة الأوروبية. ولعل شهادة المؤرخين والمفكرين الأوروبيين لابن خلدون بهذا السبق تعد أهم

(١) لسحاوي- النبر المسبوك- ص ٢٣- ٢٣، اختلف في سنة ولادته ووضعها المؤرخون الذين ترجموا له عامي ٧٦٩-٧٦هـ، وقارن النهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ١، ص ٤١٥ - ٤٢

دليل علي اعترافهم بدور الفكر الإسلامي ودور العقلية الإسلامية في تعديل وتطوير المفاهيم الأوروبية: في صناعة الكلمة وكتابة التاريخ، إن روزنتال يؤكد علي أن منهج وأسلوب ابن خلدون إنما هو منهج فريد متميز لم يسبق إليه، بل يعد ظاهرة متفردة في القرن الرابع عشر الميلادي.

إن هذه المداخله إنما نقصد بها التأكيد علي أن مصر بمدرستها التاريخية قد استطاعت أن تسهم في تغيير المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في ذلك الوقت وكان المؤرخون المصريون ومن بينهم ابن خلدون من العلامات المميزة فيما ألف وصنف من أعمال جمعت خلاصة التجارب والأفكار التي أسهمت في ذلك التغيير.

لقد شهد عصر المقرئزي مرحلة هامة في تاريخ مصر والأمة الإسلامية جميعاً هي المرحلة الانتقالية من عصور سادت فيها وتسيدت إلي مرحلة ضعف النظم السياسية والاقتصادية وانهارها، وتقلب المجتمع والدولة في أنظمة جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل.

والمقرئزي قاهري مصري حنفي شافعي ترجم له السخاوي في التبر المسبوك فقال: انه ولد بالقاهرة في سنة ست يقصد ٧٦٦هـ ونشأ بها نشأة حسنة فحفظ القرآن الكريم وسمع الحديث من جده لأمه العلامة الشمس بن الصافي الحنفي والبرهان الأمدي والعزبي اليمن بن الكويك والنجم بن رزين والشمس بن الحشاش والتتوخي وابن الشيخة وابن أبي المجد والسراج البلقيني والزين العراقي وغيرهم . (١)

ويضيف السخاوي أنه شغل كثيراً من الوظائف علي الشيوخ ولقي الكبار وجالس الأئمة فأخذ عنهم وتفقه حنيا علي مذهب جده لأمه وحفظ في فقه الحنيفة كتاباً.

أما عن أعماله فيقول: ناب في الحكم وكتب التوقيع وولي الحسبة في القاهرة

(١) - السخاوي - التبر المسبوك ص ٢٣-٢٤

غير مرة. وتولي الخطابة بجامع عمرو وبمدرسة السلطان حسن والإمامة بجامع الحاكم وقراءة الحديث بالمزينية ويشهد له السخاوي بأنه قد حمدت سيرته في مباشراته واتصل بالظاهر برقوق ودخل دمشق مع ولده الناصر وعرض عليه قضاءها غير مرة فرفض.

واستطاع المقرئ أن يصل إلى العديد من المناصب الهامة في مصر سواء في مجال التدريس أو الخطابة أو القراءة أو المناصب الإدارية. فقد تولى قراءة الحديث والوعظ بمسجد القاهرة، وتولي الخطابة بمسجد القضاة وبمدرسة السلطان حسن، وتولي الإمامة والنظر في جامع الحاكم (١) وتولي الحسبة وناب في الحكم وكتب التوقيع. كما تولى عدداً من الوظائف في دمشق وكان دخلها مع السلطان المملوكي النصر فرج بن برقوق، فدرس في الأشرفية وتولي نظر وقف القلائس والبيمارستان النوري.

وزار المقرئ الأراضي المقدسة، وجاور بها، وحدث في مكة المكرمة وتدرج المقرئ في الوظائف الدينية والتدريسية والإدارية في مصر والشام. ويقول المقرئ: عن نفسه إن أول عهده بالوظائف الحكومية ديوان والانشاء بالقلعة حيث عمل به موقفاً أي كاتباً حتى عام ١٣٦٨م ثم عين نائباً من نواب الحكم أي قاضياً عند قاضي القضاة الشافعية.

حج المقرئ غير مرة وجاور في مكة والتقى بعلمائها وشيوخها وحدث فيها بكتابه حسن الاستماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع، ويخبرنا السخاوي أنه كان يحب أن يكتب بمكة ويحدث بها. (٢)

وفي مكة أيضاً التقى بالكثير من الحجيج الذين نقلوا إليه أخبار بلادهم وخاصة جنوب الجزيرة العربية وبلاد الحبشة مما أضاف إلى تجربته وخبرته الشيء الكثير، ومما انعكس ولا شك في كتاباته ومؤلفاته وخاصة كتاب الإمام فيمن تأخر

(١) قارن محمد عبد الله عنان. مؤرخو مصر الإسلامية ص ٨٧ - ٨٨

(٢) السخاوي البشير المسبوك ص ٢٢ ٢٣

بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

وبعد رحلة طويلة من العمل والسعي والعلم والتعليم حط المقرئزي رحاله بالقاهرة زاهداً في الحياة العامة والوظائف الحكومية عاكفاً علي صياغة تجربته الخصبه في التأليف والكتابة.

يقول السخاوي: ثم أعرض عن ذلك وأقام ببلده عاكفاً علي الاشتغال بالتاريخ حتي اشتهر وبعد صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحده فأخذها وزادها زوائد غير طائلة (١).

وتنوعت مصنفات المقرئزي واتسعت مجالاتها فمنها ما عني بالتاريخ المحلي لمصر والقاهرة مركزاً علي جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها، ومنها ما اختص بتاريخ الأئمة الخلفاء الفاطميين، ومنها ما أفرده المقرئزي لقضايا محددة كالنقود والموازن والمكايل إلي غير ذلك من المجالات التي وضعت المقرئزي علي درجة متميزة بين رجال التاريخ في مصر وفي المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع الهجري، ويكفي أن نشير إلي أن مؤلفاته قد زادت علي المائة مؤلف أو يزيد إذ يذكر السخاوي: قد قرأت بخطه أن تصانيفه زادت علي مائتي مجلد كبار. (٢)

ومن أهم أعماله:

- ١- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
- ٢- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء.
- ٣- البيان والأعراب عما بمصر من الأعراب.
- ٤- الإلمام فيمن تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.
- ٥- التنارع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم.
- ٦- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

(١) قارن محمد مصطفي زيادة المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري. ص ص ١٠، ١٢.

(٢) السخاوي: التبر اسمبوك. ص ص ٢٢، ٢٣.

- ٧- شذور العقود في ذكر النفود .
- ٨- الاوزان والاكبال الشرعية .
- ٩- ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري .
- ١٠- الطرفة الغريبة في اخبار وادي حضرموت العجبية .
- ١٢- الإشارة والاعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام .
- ١٤- السلوك بمعرفة دول الملوك

وقد وصل المقرئزي بجهوده المفضية في التأليف والكتابة إلي درجة أثار عليه بعض الحاسدين، وربما كان هذه المكانة محركاً لدي السخاري الذي انتقد جهد المقرئزي واتهمه بالتزيف، ووجه إليه النقد اللاذع مما يعكس محاملاً بل كراهية شديدة لم تقلل بالطبع من قيمة الأعمال الكبيرة التي تركها المقرئزي، ويكفي أن نورد التقييم الذي وضعه القاضي ابن حجر للمقرئزي وأعماله في ترجمته له إذ يقول: إن له النظم الفائق، والشعر العابق، والتصانيف الباهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها وجدد مآثرها وترجم أعيانها.

لم يقلل القدر اذن من قيمة الأعمال الكبيرة التي تركها لنا المقرئزي ذلك أن الأساس في البحث أن يعود الباحث إلي الأعمال السابقة ويفيد من جهود أساتذته والعلماء السابقين عليه دون أن يضيع تلك الجهود أو أن يصمت عن الإشارة إليها، وقد ذكر المقرئزي ذلك واعترف بانتفاعه بمسودات الأعمال السابقة عليه وإن كان الأستاذ الدكتور مصطفى زيادة رحمه الله قد اشار إلي ان المستشرقين لم يستطيعوا أن يدفعوا تهمة السخاوي للمقرئزي أو أن يدلوا برأي حاسم فيه (١) ونحن لسنا في حاجة إلي شهادة المستشرقين أو محاولاتهم في تبرئة المقرئزي من اتهامات السخاوي له، كما أننا لا يهمنا أن نأخذ برأي كاترمير Quatremere بالسكوت عن هذا الأمر وعدم إثارة القضية، ولا ندرى

(١) قارن محمد مصطفى زيادة: المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري. ص ١١٠، ١١١.

لصالح من تؤخذ الامور علي هذا النحو، فإذا كان السخاوي يثير القضية وهي قضية هامة في البحث العلمي فلا نعتقد أن السكوت عنها يؤدي الي نتيجة وإنما إثارتها والبحث عن أصلها أولي بنا إن أردنا الوصول إلي الحقيقة. (١)

والمقريزي من المؤرخين الذين يوردون إسنادهم، ويذكرون مصادرهم وما كان يضيره أن يذكر الواحدي مثلما ذكر من أخذ عنهم في كتاب الخطط، ونحن في هذا نتفق مع الرأي الذي أورده الأستاذ المؤرخ محمد عبد الله عنان بصدده هذه القضية الهامة الذي خلص فيه إلى ما يلي: (والخلاصة أن هذا الإتهام الذي يلح السخاوي في نسبته إلي مؤرخ الخطط لا يثير في نظرنا ذرة من الريب في عظمة الجهود التاريخي الذي تقدمه الخطط وفي روعته وطرافته). (٢)

لقد استطاع المقريزي علي كل حال ان يضيف إلي الكتابة التاريخية، وأن يؤرخ لفترة دقيقة من تاريخ مصر استطاع خلالها ان يضع منهاجاً وأسلوباً انفرادياً به والتصق باسمه كما استطاع بذلك المنهج أن يرد علي الاتهامات التي وجهت إليه والتي تعبر عن الغيرة والحسد التي تنشأ بين أبناء المهنة الواحدة مما لا يزال موجوداً في ايامنا هذه.

وقد شهد له ابن تغري بردي وأكد أستاذه فقال: (وكان إماماً مقنناً، كتب الكثير بخطه، وانتقى أشياء، وحصل الفوائد، واشتهر ذكره في حياته وبعد موته في التاريخ وغيره، حتي صار يضرب به المثل، وكان له محاسن شتى، ومحاضرة جيدة إلي الغاية لا سيما في ذكر السلف من العلماء والملوك وغير ذلك، وكان منقطعاً في داره، وملازماً للعبادة والخلوة قل أن يتردد إلي أحد إلا لضرورة).

واختتم ابن تغري بردي ترجمته بقوله: ولم يزل ضابطاً حافظاً للوقائع إلي أن توفي يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وثمانمائة، ودفن في الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من القاهرة، رحمه الله تعالى) (٣)

(١) قارن محمد مصطفى زيادة: للمؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري: ص ١٠١، ١١٠.

(٢) محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الاسلامية ص ١٠١، ١٠٢.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي - ج ١، ص ٤١٧.

السخاوي:

وعندما قاربت المدرسة التاريخية المصرية علي اختتام ذلك المعهد الزاخر بالمعارف والعلوم، الزاهر بأئمة المؤرخيين الأعلام يظهرشمس الدين السخاوي ١٤٣١: ٩٠٢هـ / ١٤٢٨ : ١٤٩٦م.

السخاوي من رجال القرن التاسع الهجري الذين أثمروا الحياة الفكرية والثقافية في القاهرة بل إن ظهور السخاوي وتلميذه ومنافسه السيوطي في أواخر هذا القرن نفسة أخيرة من نفات هذه الحركة القوية التي لم تلبث أن خبت بعد ذلك وأنهارت أمام الفتح العثماني. (١)

والسخاوي مؤرخ أنجبه مصر فأصله يعود إلي سخا إحددي قري محافظة الغربية لكنه قاهري المولد والنشأة والتعليم، وقد كان منزله مجاوراً لمنزل لإمام العلامة ابن حجر العسقلاني مما أثر ولا شك فيه تكوينه العلمي منذ نعومة أظفاره. لقد لازم السخاوي شيخه الإمام ابن حجر فتعلم علي يديه علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ فقد كان ابن حجر في ذلك الوقت علماً من أعلام القاهرة ورائداً من رواد الحركة العلمية فيها، ولذا نري السخاوي قد لارم شيخه ولم يفارقه ولم يغادر القاهرة حتي وفاته وذلك في عام ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م.

ترجم للسخاوي ابن العماد فقال: ولد في ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، وحفظ القرآن العظيم وهو صغير وحفظ عمدة الأحكام والتهيه والمنهاج والفة العراقي وغالب الشاطبية والنخبة لابن حجر وغير ذلك، وكلما حفظ كتاباً عرضه علي مشايخه، وبرع في السنة والعربية والقرآن والحديث والتاريخ، وشارك في الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه والمسبقات، وأما مقروءاته ومجموعاته فكثيرة جداً لا تكاد تنحصر. (٢)

كما ترجم السخاوي لنفسه في الضوء اللامع ترجمة تفصيلية اقتداء بشيخه

(١) قارن: محمد عبد الله عنان. مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢) السخاوي الضوء اللامع، ص ٨٠، ص ٥٤.

واستاذه ابن حجر العسقلاني

يتحدث السخاوي في ترجمته عن نشأته وتربيته وتعليمه وشيوخه ونقرأ في هذه الترجمة كيف أن الحافظ ابن حجر العسقلاني قد رعي السخاوي وتبناه علمياً وصقل موهبه حتى غدا علماً من أعلام القرن التاسع الهجري. (١)

كذلك تتلمذ السخاوي علي عدد كبير من العلماء والأئمة ومن بينهم الشيخ محمد بن عمر الطباخ، وعلي المزين رضوان العقبني، والبرهان بن خضر والشهاب أبي العباس الحناوي وصالح البلقيني والشرف المناوي والعز بن عبد السلام البغدادي والقلقشندي وأبي الفتح الفوي والكمال بن الهمام وأبي القاسم النويري وغيرهم وذلك في النحو واللغة والحساب والفقه والقرءات والبيان والتفسير. (٢)

وقد بلغ السخاوي درجة رفيعة من العلم وأجازه كثيرون من الأئمة في عصره في الفقه والأصول والحديث وأصوله، والعربية وفروعها وفي التدريس والإفتاء والأملء.

وبعد وفاة ابن حجر رحل السخاوي إلي البلدان طالباً العلم فزار دمياط والتقي بعلمائها وشيوخها ووصل مكة وزار أماكنها الشهيرة، ثم زار مدينه رسول الله ﷺ، واتصل بمؤرخها الشهرير البدر بن عبد الله بن فرحون وغيره من العلماء ثم رحل بعد ذلك إلي بلاد الشام فزار أهم المدن الشامية والتقي بكثير من العلماء ذكر أنهم زادوا علي المائة شخص من كبار العلماء. (٣)

وبعد هذا الترحال والتجوال في بلدان المسلمين ومراكز العلم عاد السخاوي إلي القاهرة واستقر بها. ومن الملاحظ أن السخاوي لم يقم نفسه في الحياة السياسية في مصر، ولم يتدخل في مشكلات الحكم والسياسة ولم يكن له ولع بدسائس القصور والحكم مما يجعلنا نظن لكتابات ومؤلفاته نظرة خاصة لأنها تتسم بكثير من الحياد

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨، ص ٤٠٤.

(٢) بلغ عدد الذين تتلمذ عليهم السخاوي أربعمئة أستاذ وعالم وقته.

(٣) انظر ترجمة ضافية للسخاوي في مقدمة التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج ١ ص ٩: ١٤.

ولقد كان السخاوي دون شك عالماً من أعلام المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع الهجري ذلك أن ما قدم السخاوي من أعمال متنوعة يضمه بين مورخي هذه المدرسة رائداً مجدداً صاحب منهج متميز في كتابة التاريخ بل صاحب رأي في صناعة الكتابة التاريخية، وصاحب أسلوب نقدي جريء .

قاد السخاوي حركة فكرية نشيطة في القاهرة، وخلق جواً من الحوار الساخن بين رجال المدرسة التاريخية ورواد الحركة الأدبية في ذلك الوقت، واشتملت المساجلات بينهم مما سجلته لنا وثائق تلك الفترة وأهمها رد السيوطي علي أستاذه السخاوي في مقدمته التي أسماها الكاوي علي تاريخ السخاوي (١) .

لقد تعرض السخاوي بالنقد لكثير من علماء القاهرة وأساتذته عصره ومن بينهم ابن خلدون والميني والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي الذي لم ير السكوت علي المسلك الذي انتهجه السخاوي في نقد رملانه وأساتذته .

ومع ذلك فقد شهد رجال العصر للسخاوي بالعلم والأستاذية والريادة، واعتبروه إمام القرن التاسع الهجري فقد رسخت أقدامه في شتى فروع العلم والحديث واللغة والفقهاء والتراجم والطبقات والتاريخ .

ويقول صاحب البدر الطالع : لو لم يكن للسخاوي من التصانيف إلا الضوء اللامع لكان أعظم دليل علي إمامته .

تعددت مؤلفات السخاوي وتنوعت، وكانت علامة مميزة بين مؤلفات المدرسة التاريخية في ذلك القرن ومنها :

العقد الثمين في مشيخه خطيب المسلمين .

الفتح العربي في مشيخه الشهاب القربي .

الجواهر المكملة في الأخبار المسلسلة .

بغية الراوي بمن أخذ عنه السخاوي .

(١) مفاضة الكوي علي تاريخ السخاوي . مخطوط رقم أدب . ٣١٩٣ ، دار الكتب - القاهرة .

الرحلة السكندرية وتراجمها .

التحففة اللطيفة في تاريخ المدينة لشريفة في ثلاث مجلدات .

التبر المسبوك علي ذيل السلوك .

الذيل علي قضاة مصر .

الذيل علي دول الإسلام للذهبي .

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

الضوء اللامع لاهل القرن التاسع .

إلي غير ذلك من المصنفات النفيسة التي تركها والشمس السخاوي صاحب منهج مستقل في التأليف والتدوين، ولعل كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ يدل علي المقدرة العظيمة لهذا المؤرخ في إيضاح أبعاد علم التاريخ وتحديد مفهومه وموضوعه ومناهجه وفوائده .

كذلك فإن السخاوي استطاع أن يحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في المؤرخ، ونستطيع أن نقرر أن السخاوي قد وصل إلي هذا المستوي الرفيع من الكتابة، وهذا المستوي المتميز من الفكر لأنه كان مؤرخاً حراً، لم يقبل الإنخراط في وظيفة رسمية في الدولة ولم يقحم نفسه في السياسة، وكان يكره بشدة أن يلتزم بقيود وظيفية مهما علت مكائنتها فلم يتأثر باتجاه معين أو برأي حاكم أو سلطان، وهذا في رأينا مما يضيف قيمة علمية كبيرة لمؤلفاته التي أوصلته إلي مكانة رفيعة بين العلماء حسده لأجلها أقرانه .

السخاوي إذن هو أعظم رجال المدرسة التاريخية المصرية في القرن التاسع بل أحد أعلام المؤرخين المسلمين في ذلك العصر، فقد عرف بأنه المحدث المدقق، والفقير المحقق والمؤرخ البار، والناقد اللاذع، والكاتب الجريء صاحب المنهج الحر والرأي المستقل .

وتختم المدرسة التاريخية المصرية دورها المميز في التأليف التاريخي ومناهج البحث والكتابة فيه بالإمام العلامة، جلال الدين السيوطي . وحفظ القرآن الكريم

وهو في الثامنة من عمره، ثم حفظ الفية ابن مالك، ومنهاج أصول الحكم للنووي
السيوطي ٨٤٩: ٩١١هـ / ١٤٤٥: ١٥٠٥م:

درس السيوطي الفقه والفرائض، وقرا شرح الكافية لابن الحاجب وتلمذ
علي عدد من أئمة عصره كالشيخ الشرف المناوي وعلم الدين البلقيني وتقي الدين
الشليبي ودرس علي يد العلامة محي الدين الكافيجي وعنه أخذ التفسير والأصول
والعربية والمعاني وأجازه كثيرون من شيوخ عصره بلغ عددهم واحد وخمسون
شيخاً

رحل السيوطي إلي كثير من البلدان فزار بلاد الشام والحجاز حيث أدي
فريضة الحج وتعلم علي يد كثير من شيوخ الحرمين الشريفين وزار بلاد الهند
واليمن، وارتحل إلي بلاد المغرب وتوغل في أفريقية فزار بلاد التكرور.
إنقطع السيوطي للعبادة والعلم وهو في الأربعين من عمره، وترك وظائفه
التي كان قد تقلدها في التدريس والفتيا، ولزم داره عاكفاً علي الكتابة راهداً في
الدياكتي وافاه الأجل عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م.

والإمام السيوطي من رجال المدرسة التاريخية المصرية الذين تركوا بصمات
واضحة فيها يدل علي ذلك مؤلفاته العديدة المتنوعة في التاريخ.

من أهم مؤلفاته التاريخية كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر وضع فيه
جلال الدين السيوطي عصاره فكره وجملة تجاربه وذكر فيه مصادره وشيوخه الذين
استقي منهم مادة الكتاب فيقول:

هذا كتاب سميته حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وأوردت فيه
فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس وتكون للوحدة نعم
الأنيس. (١)

ثم يضيف: وقد طالعت في هذا الكتاب كتباً شتي منها، فتوح مصر لابن
عبد الحكم، وفضائل مصر لابن عمر الكندي، وتاريخ مصر لابن زولاق، والخطط

(١) السيوطي حسن المحاضرة ج١ ص ٣

للقضاعي، وتاريخ مصر لابن ميسر وإيقاظ المتغفل وإيقاظ المتأمل لتاج الدين بن محمد عبد الوهاب بن المتوج الزبيري، والخطط للمقريري، والمسالك لابن فضل الله العمري ومختصره للشيخ تقي الدين الكرمانى، ومباحج الفكر ومباحج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصاري، وعنوان السير لمحمد بن عبد الملك الهمداني وتاريخ الصحابة للذهبي، والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر، ورجال الكتب العشرة للحسيني، وطبقات الحفاظ للذهبي، وطبقات القراء وطبقات الشافعية للسبكي وللإسنوي وطبقات المالكية لابن فرحون وطبقات الحنيفة لابن دقماق ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي وتاريخ الإسلام للذهبي، والعبر له، والبداية والنهاية لابن كثير وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، والطلع السعيد في أخبار الصعيد للأدقوي، وسجع الهديل في أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشي والسكردان لابن حجلة وثمار الأوراق لابن حجة.

وهذا يوضح لنا منهج السيوطي، وحرصه علي أن يذكر من الأعمال كل ما أفاد منه في تأليف حسن المحاضرة، مما يؤكد علي أن الرجل قد اطلع بنفسه علي نفائس المؤلفات السابقة في التاريخ والتراجم والسير والخطط والطبقات والجغرافيا التي شكلت المصادر الأولية للكتاب، وهذا المنهج ولا شك هو المنهج الصحيح الدقيق في البحث التاريخي.

ولم يقتصر السيوطي علي مجرد ذكر المصادر التي اعتمد عليها في مؤلفاته بل إنه يذكر دواعي تأليف كتبه فمن ذلك يشير في مقدمة كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة يقول: والدواعي إلي تأليف هذا الكتاب أمور منها:

- ١- الإحاطة بتراجم أعيان الأمة.
- ٢- تخلص تواريخهم من الخلط.
- ٣- إفرد كل طائفة منهم بكتاب شأنهم شأن النجاة واللغوين وغيرهم.
- ٤- أهمية أن يفرد كتاب للخلفاء من الأئمة أكد فيه علي أنه لم يورد أحداً ممن ادعي الخلافة خروجا ولم يتم له الأمر ككثير من العلويين وقليل من

العباسين .

٥- أكد السيوطي علي أنه لم يورد أحداً من الخلفاء العبيديين لأن إسماتهم

غير صحيحة في راية

ومن هنا نرى أن السيوطي لم يكن مؤلف لمجرد التأليف، وإنما كانت هناك

أهداف وراء كتاباته، ومنها تصحيح التاريخ، وإعادة كتابة ما يحتاج منه إلي ذلك .

ومن أهم آثار السيوطي في كتاب حسن للمحاضرة أنه أورد لنا ثبنا بأسماء من

كان بمصر من المؤرخين وهم :-

١- سعيد بن عفير .

٢- محمد بن عبد الحكم .

٣- محمد بن الربيع الجيزي .

٤- عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاة الفارسي صاحب التاريخ علي

السنين قال ابن كثير: ولد بمصر، وحدث عن أبي صالح كاتب الليث وغيره مات

عام ٢٨٩هـ / ٩٠١م

٥- الطحاوي .

٦- الحسن بن قاسم بن جعفر توفي عا ٣٢٧هـ / ٩٣٨م .

٧- أبو سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر .

٨- أبو عمر الكندي محمد بن يوسف بن يعقوب، صنف فضائل مصر

وكتاب قضاة مصر، كان في زمن كافور .

٩- ابن زولاق أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصري المؤرخ صنف

كتاباً في فضائل مصر، وذيلاً علي قضاة مصر للكندي، مات في ذي القعدة عام

٣٨٧هـ / ٩٩٧م

١٠- المسيحي الأمير المختار عن الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد

الحراني صاحب التصانيف، قال في العبر: كان رافضياً صنف تاريخ مصر، وكتاب

في النجوم وكتاب التلويح والتصريح وتوفي عام ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م .

١١- القضاء

١٢- القفطي الوزير جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني وزير حلب صاحب تاريخ النحاء، وتاريخ اليمن، وتاريخ مصر، وتاريخ بني بويه، وتاريخ بني سلجوق، ولد بقطنة سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ومات بحلب سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م.

١٣- محمد بن عبد العزيز الإدريسي الفاوي، ألف المفيد في أخبار الصعيد، ولد في ٥٦٨هـ / ١١٧٢ وتوفي في ٦٤٩هـ / ١٢٥١م.

١٤- جعفر بن محمد بن عبد العزيز الإدريسي الفاوي، ابن محمد المؤرخ السابق ألف تاريخاً للقاهرة ومات في ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م.

١٥- ابن خلكان القاضي شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الأربلي الشافعي صاحب وفيات الأعيان سكن مصر مدة، ونبأ في القضاء، ثم ولي قضاء الشام عشر سنين ثم عزل فأقام بمصر، ومات عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م.

١٦- أبو الحسن بن سعيد علي بن موسي بن عبد الملك الأديب الأخباري ولد بقرناطة، دخل مصر والشام وبغداد وألف المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق، والطالع السعيد في تاريخ تونس ومات في تونس عام ٦٨٥هـ / ١٢٧٦م.

١٧- الأمير ركن الدين بيسرس المنصوري صاحب التاريخ المستفي بزبدة الفكرة في أحادي عشر مجلداً، والتفسيرات في سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م

١٨- ابن المتوج محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيري أحد العدول بمصر ولد عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م وألف تاريخ مصر سماه: إيقاظ المتغفل واتعاط المتأمل ومات عام ٧٢٠هـ / ١٣٣٠م.

١٩- الكمال الأدفوي أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر صنف الطالع السعيد في تاريخ الصعيد، والإمتاع في أحكام السماع وتوفي ٧٤٩هـ / ١٣٣٨م.

٢٠- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري المؤرخ صاحب

التاريخ المشهور توفي ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م.

٢١- القطب الحلبي.

٢٢- ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن

المصري الحنفي، كان لهجاً بالتاريخ، فكتب تاريخاً كبيراً جداً ومات عام ٨٧٥هـ /

١٤٧٠م.

٢٣- صارم الدين محمد بن دقماق مؤرخ الديار المصرية جمع تاريخاً علي

الحوادث، وطبقات الحنفية وتوفي عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٦م.

٢٤- شهاب الدين الأوحدي أحمد بن طوغان ولد سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م.

وكان لهجاً بالتاريخ، ألف كتاباً كبيراً في خطط مصر والقاهرة مات عام ٨١١هـ /

١٤٠٨م.

٢٥- تقي الدين المقرئ أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد مؤرخ

الديار المصرية ولد سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م واشتغل في الفنون، وولي حبة القاهرة

وألف كتاباً منها درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة والمواعظ والاعتبار

بذكر الخطط والآثار، وعقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة القسطنطينية وإعطاء

الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، والسلوك بمعرفة أول دول الملوك، والتاريخ الكبير،

وغير ذلك ومات سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م.

٢٦- ابن حجر.

٢٧- شيخنا المزمحلبي. (١)

ومن هذه القائمة نرى أن السيوطي ألم لنا بمؤرخي مصر في نظره منذ بداية

المدرسة التاريخية المصرية وحتى عصره، لكنه أغفل عدداً لا بأس به منهم ومن

بينهم أساتذته السخاوي.

ونلاحظ أيضاً أنه لقب كلاً من ابن دقماق والمقرئ بمؤرخ الديار المصرية،

ورصف المسيحي بأنه رافضي، وصمت عن البعض واكتفي بمجرد ذكر أسمائهم في

القائمة ووصف البعض بلقب المؤرخ مثل ابن رولاق والنويري، وأما ابن سعيد فنعته بالأخباري.

ولقد ترك السيوطي تراثاً ضخماً من المؤلفات التاريخية وغيرها فإلى جانب حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء صنف در السحابة، ونظم العقيان في أعيان الزمان والشماريخ في علم التاريخ إلى غير ذلك من المؤلفات.

والسيوطي من الفقهاء المفسرين الذين عنوا بالتاريخ، لكنه لم يستطع أن يصل في كتابة التاريخ إلى المستوى الذي ارتقى به في تصانيفه الفقهية. لكننا يجب أن نؤكد علي القيمة التاريخية الكبرى لمؤلفه تاريخ الخلفاء وتاريخ مصر المسمي بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة فهما في نظرنا أهم المؤلفات التاريخية التي قدمتها المدرسة المصرية.

والسيوطي من رجال المدرسة التاريخية المصرية الذين شهدوا ختام ذلك العصر الذي إمتاز بحرارة المنافسة العلمية وشدة النزاع علي الزعامة الفكرية في الحلبة الثقافية في القاهرة في ذلك الوقت الذي اشتهر ابن خلدون بأفكاره الجديدة ونظرياته التي سبق بها عصره.

لقد استطاع ابن خلدون تحليل الظواهر السياسي والاجتماعية والاقتصادي التي عاشتها المجتمعات الإسلامية، كما استطاع أن يضع نظرية بحثية جديدة أو علماً جديداً New Science كما أدخل مفاهيم جديدة علي العقلية الوسيطة في الشرق والغرب علي السواء شهد له بها المفكرون الأوربيون القدامي والمحدثون. (١) ويمكن القول ان ابن خلدون احد رجالات هذه المدرسة استطاع ان يطور صناعة الكلمة المدونة، وأن يدخل اسلوباً جديداً تفرد به وتميز علي غيره من معاصريه.

ولعلنا نشير إلي الصراع العنيف الذي السيوطي وبين شمس الدين السخاوي

1- Rosen Thal., Political Thought In Medieval Islam. P.8

Gibb. The Islamic Background Of 'ibn Khaldun's Political Theory.P.167

الذي احتدم إلي درجة إتهام كل منهما للأخر بالعديد من التهم مما ظهر بشكل مؤسف في مقامة الكاوي علي تاريخ كما أشرنا سابقا في حديثنا عن السخاوي .

ومع دخول العثمانيين مصر كانت المدرسة التاريخية المصرية تختتم ذلك العصر الزاهر وتستقبل مرحلة جديدة اكتسبت سماتها من طبيعة العصر الجديد وهو العصر العثماني في مصر الذي قضى بوصول سليم الأول إلي القاهرة علي دولة المماليك لتتقبل مصر كلها عصراً جديداً سجل لنا أحداثه الحزينة المؤرخ محمد بن إياس لكن مصر المعطاءة مالبث أن أفاقت من صدمة الاحتلال العسكري لأرضها وسرعات ما واصل رجالها العمل والعطاء اقتداءً برجالات القاهرة ابن حجر والسخاوي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي وغيرهم .

ولم تنقطع إسهامات المؤرخين المصريين بعد دخول العثمانيين مصر فقد استمر العطاء، وتواصل العمل علي عكس ما هو شائع بين بعض المؤرخين من أن حركة التأليف والتدوين التاريخي انقطعت بعد ابن يأس وذلك خلال القرون الثلاثة التالية للفتح العثماني وحتى ظهور عبد الرحمن الجبرتي .

والواقع أن تلك القرون الثلاثة قد قدمت العديد من المؤرخين المصريين الذين واصلوا المسيرة وأجزلوا العطاء فكانت مؤلفاتهم الأصلية التي وثقت تاريخ مصر والمصريين، وسجلت أحداث تلك المرحلة التي لولاجهودهم لاندثرت أخبارها وبادت ومن هؤلاء أبي السرور البكري صاحب المؤلفات العديدة لتاريخ مصر في عهد العثمانيين .

وبهذا تكون المدرسة التاريخية المصرية قد واصلت عطاءها تؤرخ لمصر وللمصريين وتوثق الأحداث وتسجلها لتكون شاهدة علي العصر مؤكدة علي أن مصر غنية بمؤرخيها وعلمائها الذين لم يتوقفوا يوماً عن العطاء .